العدد الثاني ١٩٨١

ذاكرة المجلة

جبران في ذروته

لكل كاتب أو شاعر أو فنّان – بل لكل عامل مهما يكن عمله – ذروة إذا هو بلغها تعذر عليه أن يسمو فوقها. فكأن كل ما سبقها درجات ترقى اليها، وكل ما جاء بعدها درجات تنحدر منها. وقليل جداً هم الكتّاب والشعراء والفنّانون الذين بلغوا في نتاجهم أكثر من ذروة واحدة وكانت جميعها متساوية في السموّ والسناء كما هي الحال – مثلاً – مع شكسبير. فأنت، إذ تعرض الأهم من رواياته، لا تستطيع البتّ في أيها الأجود والأروع والأعلى. أهي «همليت» أم «مكبث» أم «الملك لير» أم «يوليوس قيصر»؟ الا انك لا تتردد أبداً في القول بأن كتاب «هكذا تكلم زارادشت» كان الذروة الأبهى والأعلى في نتاج فردريك نيتشه.

وأنا، إذ أمر بنتاج جبران من مقاله «الموسيقى» الذي افتتح به حياته وحتى كتابه «التائه» الذي اختتم به تلك الحياة، لا أتردد لحظة في القول بأن «النبي» كان الذروة الأعلى في ذلك النتاج، وان كل ما كتبه جبران قبل «النبي» وبعده لم يكن غير درجات الى تلك الذروة ومنها.

كأني بجبران، وقد كان من صفاء البصيرة، وقوة الخيال، ورهافة الحس والذوق حيث كان، وقد لمح منذ بدء نشأته الأدبية تلك الذروة التي عليه أن يدركها. ولكنه لمحها كما من خلال الضباب، وقبل أن تكتمل عدته لإدراكها – فراح يشق طريقه اليها بلجاجة وعناد ما بعدهما عناد ولجاجة. وراح يكشح الضباب من أمام عينيه وقدميه، ويتحسس طريقه خطوة خطوة.

لكنه، وهو الذي كان الشعر والفن يجريان في قلبه وروحه جريان الدم في عروقه، ما استطاع أن يشق طريقه صامتاً، صابراً. بل كان لا بدّ له من ان يحدّث نفسه والناس بالكلام والخطوط والألوان عمّا لاقاه من مشقة وعنت ووجع في شق ذلك الطريق. فما «عرائس المروج» و «الأرواح المتمردة» و «دمعة وابتسامة» و «الأجنحة المتكسرة» و «المواكب» و «العواصف» وغيرها من الكتابات التي سبقت «النبي» سوى صرخات نفس مجهدة في جهادها ضد كل عائق أو حاجز يقوم بينها وبين القمة التي تبتغي الوصول اليها.

وهذه الصرخات تعلو وتهبط، وتمتد وتنكمش، وتلتهب وتخبو على قدر ما يكون الوجع الذي تنطلق منه جسيماً أو خفيفاً. فهي حيناً ثورة جامحة، وحيناً تبكيت لطيف. وآناً شكوى مريرة، وآونة بث يكاد يكون همساً. فما أكثر ما ثار جبران في بدء حياته الأدبية على أوضاع الناس من دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية. وما أكثر ما ندّد بخنوعهم وخنوعهم وعبودياتهم للتافه والخسيس فيهم، وبتعاميهم عن الجليل والنبيل في حياتهم. وما أكثر ما شكا غربته ووحدته ووحشته بينهم. ثم ما أكثر ما علا الى نفسه يعزيها بالحديث عن الحب والحق والجمال عما تلاقيه في دنيا الناس من كره وباطل وبشاعة. وكان حديثه أبداً عذباً، سواء أضحك أم بكى، وثار أم سكن، وندّد أم تودّد، وتفجع أم تأسى. فالأسلوب الذي اختاره للافصاح عما كان يعانيه من كآبة ومرارة ووحدة ووحشة في تفتيشه المحموم عن هدفه خلف الضباب كان أسلوباً جديداً وفريداً في عالم الأدب العربي. فهو أسلوب يمور بالألوان الحية، ويعجّ بالأنغام الشجية، ويتوهج صدقاً وإيماناً، ويتنكب كل مألوف من الاستعارات والكنايات. انه نسيج وحده. ولا عجب أن غدا معروفاً بالأسلوب الجبراني.

تاه جبران طويلاً في المتناقضات – مفازة الخير والشر. وقد خيّل اليه وهو يتلمس طريقه للافلات من قبضة الشر ان في استطاعته القضاء عليه بتوجيه ضربة محكمة الى يافوخه. فضرب وضرب وضرب. ولكن الشر ما برح يجول ويصول في الأرض. فلا الظلم باد، ولا الدعارة امّحقت، ولا الرياء ثل عرشه، ولا البشاعة بشتى وجوهها اندثرت،

ميخائيل نعيمه

نشكر إدارة «المجلة التربوية» الأستاذ نعيمه الذي خصها بهذا المقال غير المنشور في أيّ من كتبه الإفرادية.

ولا أصبح الحب والحق والحرية والجمال أسياداً مطلقين في قلوب الناس وأفكارهم. فأين المخرج من المأزق؟ وكيف النجاة من مفازة الخير والشر التي تبدو كما لو كانت بغير بداية أو نهاية؟

ما كان يدري جبران، وهو يفتش من خلال الضباب عن طريق الى القمة التي لمحها باكراً بخياله، ان تلك المفازة كانت الطريق، وان ذلك الضباب كان الدليل. فلولا تلك المفازة، ولولا ذلك الضباب لما أدرك القمة التي كان يبحث عنها، ولا أبصر النور المتلألئ في أعاليها. وإذ ذاك لما كان لنا «النبي». ولا كانت لنا «أورفليس». ويقيني ان جبران نحت هذه الكلمة الأخيرة من كلمة Orphan الانكليزية، ومعناها اليتيم. فأورفليس هي المدينة اليتيمة التي فقدت النور بفقد نبيها فعادت تغرق في الضباب.

وما هو النور الذي أبصره جبران على القمة؟

انه نور المحبة التي تحتضن الخير والشر فيقف منهما شيء عجيب لا هو بالخير ولا هو بالشر. ولكنه فوقهما. أو هو الاثنان معاً وقد توحدا في كينونة شاملة، صافية، لا متناهية:

«يا أهل أورفليس...

«الحب يجمعكم اليه كما يجمع الحاصد السنابل.

ثم يدرسكم ليعرّيكم،

ثم يطحنكم طحناً،

ثم يعجنكم عجناً،

ومن بعدها يتعهدكم بناره المقدسة كيما يجعل منكم خبزاً مقدساً لوليمة الله السرية المقدسة.

... إذا أحبّ أحدكم فلا يقولنّ: ان الله في قلبي. وليقل بالأحرى: انني في قلب الله».

ذلك هو النور الذي كشح الضباب من أمام عيني جبران وقدميه. فأبصر طريقه جلياً، ومشى فيه بخطوات ثابتة حتى أدرك القمة التي لمحها من قبل لمحاً بخياله. وإذ أدركها انقلبت مرارته حلاوة، ووحشته أنساً، وقلقه طمأنينة، وثورته سكينة وسلاماً. وذلك ما عناه بقوله فيما بعد:

«عندما طرحني الله حصاة في بحرة الحياة العجيبة أحدثتُ على سطحها دوائر لا تحصى. إلا أنني من بعد أن بلغت القاع أصبحت هادئاً».

ان يكن «النبي» الذروة التي بلغها جبران في حياته الأدبية ففي الكتاب نواتئ بارزة يمكن اعتبارها ذروة الذروة، إذا جاز التعبير. مثال ذلك فصله في «العطاء» حيث يقول:

«هنالك مَن يعطي القليل من الكثير الذي لديه، ويعطيه طمعاً بالظهور. فهذا تفسد شهوته الخفية عطاءه.

وهنالك مَن يملك القليل ولكنه يعطي جميع ما يملك.

ذلك شأن المؤمنين بالحياة وجُود الحياة. فخزانات هؤلاء لن تفرغ أبداً.

وهنالك هم الذين يعطون وهم جذلون. فجذلهم ثوابهم.